الأدب في عهد الموحدين (نحو 515 -674هـ)

ما إن تمكن الموحدون من إرساء دعائم حكمهم حتى نهضوا بما نهض به أقرانهم العباسيون والفاطميون من نشر العلوم والمعارف المتنوعة[1]، منها الفلسفية والدينية واللّغوية والأدبية والعلمية. وأصبحت مراكش أيام ازدهار الحضارة الموحدية مدينة علم وفكر وفن وأدب، تضج بأعلام كبار في كل فن، وقد ساعدت على ازدهار الحركة الفكرية أيام الموحدين هجرة العلماء وأقطاب الفكر العربي وخصوصا من الأندلس[2] التي شهدت نزوحا كبيرا من قبل هؤلاء العلماء على اختلاف توجهاتهم المعرفية، ولم يكن القطر الجزائري بمعزل عن هذه النهضة الثقافية، بل كانت عدة مناطق فيها مراكزا للإشعاع الثقافي كتلمسان وهران وبجاية وقسنطينة، وغيرها من المناطق التي نبغ فيها العديد من كبار الفقهاء والمحدثين والعلماء والكتاب والشعراء.

هذا، وقد كان لهذا الاحتكاك العلمي الذي وقع بين الجزائريين وأعلام الثقافة المهاجرة من الأندلس الذين استوطنوا تلمسان وبجاية أثره العلمي البارز وخصوصا لما بدأت المدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلوى الأخرى في يد الأسبان " فأخذوا يتسللون أفواجا نحو المغرب، وكان حظ الجزائر منهم كبيرا فاستقبلتهم بلادنا بصدر رحب، فأفادوا بمواهبهم وثقافتهم اللامعة أسواق العلم والأدب، فراجت رواجا لم ير من قبل"[3].

1 -الشعر.

لقد كان لهذا الامتداد الثقافي أثره الواضح في الحقل الأدب الجزائري نثرا وشعرا إذ أحرز الشعر تقدما من حيث الكيف إذ تنوع في أغراضه

---

[1] مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج2. 335.

[2] محمد القاضي: النهضة الفكرية والأدبية في عصر الموحدين بالمغرب. ينظر الموقع الإلكتروني:

http://alwaei.gov.kw/volumes/554/langAndLit/Pages/nahda.aspx

[3] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص66.

وأسلوبه، فظهرت في هذه الفترة الموشحات، وتقدم من حيث الكم إذ نبغ عدد لا بأس به من الشعراء الذين نظموا في نصرة المذاهب السياسية كمذهب الموحدين وفي المدائح النبوية وفي الابتهالات الإلهية وفي الأغراض الشخصية[1]، ومن أشهر هؤلاء الشعراء نذكر:

-ابن الاشيري (المتوفى بعد 569هـ).

أبو علي حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب، المعرف بابن الأشيري، أديب كاتب شاعر عارف بالقراءات، ولد بتلمسان ونشأ بها، ثم انتقل إلى الأندلس قبل سنة 540هـ، لم تذكر كتب السير والتراجم تاريخ وفاته، من مؤلفاته: مجموع في غريب الموطأ، ونظم اللآلي وهو كتاب في التاريخ[2]، كان لابن الأشيري نظم حسن منه هذه القصيدة التي قالها في غزوة السبطاط التي خاضها الخليفة الموحدي الإمام أبي يعقوب يوسف سنة 569هـ، والتي منها هذه الأبيات[3]:

دارَتْ رَحَا الهالكَاتِ بالسِّبْطاطِ ... وَسَطا بها رَيْبُ الزَّمـان السّاطِي

وأُهِين فيـــها الشّركُ أيَّ إهانةٍ ... شــفعت كرية هِـياطِها بمياطِ

إن لم تَقُمْ فيهـــا قيامةُ مُلكِهم ... فلــقد رأوا جُمَـلا من الأشرَاط

وأصارها وَطءُ الـــجيادِ هشيمة ... ســـودآءَ مُـعتَـبرا لعينِ الوَاطِي

....

جيشٌ من العُرْبِ الذين إذا غزوا ... كوَوْا الأعـاجم في الطُّلاّ بِعِلاط

قوم إذا شمخ العنادُ بأنـــــفه ... وضعوا السّيوف مواضع الأسواط

---

[1] السابق. ص66.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص16.

[3] ينظر صفوان بن ادريس: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر. نشر وتهذيب عبد القادر محداد. بيروت . 1939. ص 60. ومحمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص72.

يتراء لنا الشاعر من خلال هذه الأبيات مبتهجا بانتصار الخليفة على أعداء الاسلام وقد وفق في وصف وقائع المعركة وأجاد في تصوير انهزام الأعاجم وانكسارهم أمام قوة العرب وعنادهم، والأكيد أن الشاعر قد تغنى في أكثر من قصيدة بهذا الانتصار التاريخي لكن شعره ضاع ولم يصلنا منه إلاّ هذه القصيدة وبيتين أخرين ذكرهما صاحب زاد المسافر في مدح الخلفية[1].

-الأمير أبو ربيع سليمان(ت 604هـ)

أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي، أمير وابن أمير وحفيد خليفة عظيم، أديب، شاعر، كان فصيحا بالعربية والبربرية، ولد أغلب الظن في بجاية سنة 532هـ، وكان أبوه واليا عليها، وبها نشأ وتعلم، ثم عين واليا عليها، توفي سنه 604هـ[2]، لأبي الربيع ديوان شعري اسماه نظم العقود ضم فيه أغراض تقليدية متعددة كالمدح والوصف والرثاء والعتاب والزهد والألغاز غيرها، ومن النماذج التي نستدل بها على شعره، قوله في فتح الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف، ابن أمير المؤمنين، مهنئا له بفتح مدينة قفصة[3]:

هبت بنصركم الرياح الأربع وجرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لعونكم الملائك سبقا حتى لضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنا أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذي ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا وأنت بدلت في مرضاته نفسا تفديها الخلائق وأجمع

[1] صفوان بن ادريس: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر. ص 59.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص220- 221.

[3] سليمان بن عبد الله الموحد الأمير أبي الربيع: الديوان. تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي وآخرون. منشورات كلية الآداب. جامعة محمد الخامس. ص20.

إن مجموع هذه الأبيات في الأصل مجتزأة من قصيدة طويلة مدح بها الشاعر كما أسلفنا الخليفة أبا يوسف، وهذه الأبيات في حقيقتها تنم عن شاعرية فريدة لاحتوائها على جميع عناصر الإبداع " من صدق القول والتجربة، وجمال الصياغة وفصاحة اللغة وجمال التشبيه وحتى ذكاء الفكرة"[1].

-محمد بن حماد الصنهاجي(548 - 628هـ)

أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، مؤرخ، شاعر، أديب، قاض، مضطلع بعلوم اللغة والفقه والحديث، نشأ ببرج حمزة (قرب البويرة) وتعلم في قلعة بني حماد وبجاية وتلمسان، دخل الأندلس وتولى فيها القضاء، توفي في مراكش سنة 628هـ[2]، له عده مؤلفات منها: كتاب في أخبار ملوك بني عبيد -الفاطميين، وكتاب النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة، وكتاب لخص به تاريخ ابن جرير للطبري، وكتاب في شرح لمقصورة ابن دريد ... ، ومن شعره هذه القصيدة التي نظمها في رثاء قلعة بني حماد بعدما قضى عليها الموحدون سنة 547هـ[3]:

أين العروسان* لا رسم ولا طـــــلل فأنظر تر ليس إلا الســـهل والجبل
وقصر بلارة** أودى الزمـــــان به فأين ما شاد منـــــه السادة الأول
قصر الخلافة أين القصر من خرب غير اللـــــــجين وفي أرحابها زحل
وليس يبهجني شيء أســـــــر به مـــــن بعد أن نهجت بالمنهج السبل

---

[1] السعيد بخليلي. الشعر الجزائري في العصر الموحدي دراسة في موضوعاته وبنياته الفنية. ص11.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص197.

[3] ينظر: عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. ج2. ص334 و مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج2. ص262.

* من القصور التي أنشأها الناصر بن علناس في قلعة.

** من القصور التي أنشأها الناصر بن علناس في قلعة.

وما وراء الكوكب العلوي معتصم وقد عرا لكوكب التغيير والندل
وقد عفا قصر حماد فليس له رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هب الزمان به حادثٍ قل فيه الحادث الجلل
وإن في القصر قصر الملك معتبرا لمن تغر به الأيام والدول
وما رسوم المنار إلا ماثله لكنها خبر يجري به المثل

إن الشاعر في هذه الأبيات يتحدث عن قصور أسلافه الحماديين الدارسة، ويندب معالمها ورسومها الفانية، فلم يعد وجود للعروسين ولا لقصر بلارة، وكل القصور امحت واختفت ولم يبق لا رسم ولا أثر، وحتى المصلى الذي كان يلحق بالقصور اختفى ولم يبق منه سوى بقايا أطلال، وهذا الشعر كما يرى محمد الطمار " جيد السبك، جمع بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ويدل على ملكة قوية في الوصف، ونلمس فيه حبا جما"[1] وحنينا عارما للوطن.

ونشير، هنا، أن الشاعر في هذه المرثية لم يكن معاصرا للحماديين "وإنما رثى ملكهم وهو في رحلة سياحية إلى تلك الديار الدارسة فتذكر أمجاد أجداده الذين أسسوا القلعة وقصورها"[2].

-حسن ابن الفكون ، (حيّ أوائل القرن السابع الهجري 602هـ).

هو أبو علي حسن بن علي بن عمر القسنطيني، الشهير بابن الفكون، شاعر المغرب الأوسط في وقته من أهل قسنطينة[3]، لا نعرف عن تاريخ ميلاده ولا وفاته شيئا على وجه التحديد، سوى أنه كان حيا سنة 602هـ،

[1] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص77.

[2] السعيد بخليلي: الشعر الجزائري في العصر الموحدي دراسة في موضوعاته وبنياته الفنية. ص25.

[3] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص253- 254.

خلف ابن الفكون ديوانا شعريا بحسب ما أشار إليه الإخباريون أصحاب التراجم والسير، لكنه ضاع وما وصلنا منه الاّ بعض القصائد والمقطوعات في مدح ولاة بني عبد المؤمن في بجاية، ورحلة نظمها في سفره من قسنطينة إلى مراكش سنة 602هـ ضمنها ذكر المدن التي مر بها[1].

وستكون لنا معه وقفة تفصيلية في محاضرة مستقلة نوضح من خلالها أبعاد تجربته الشعرية وجماليتها.

-محمد الأريسي الجزائري(أواسط القرن السابع الهجري)

أبو عبد اللّه، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأريسي الجزائري، المعروف بالجزائري، من كبار أدباء الجزائر* في أواسط المائة السابعة[2]، قال عنه الغبريني " كان حسن النظم والنثر، مليح الكتابة حسن الوراقة في البطاقة، وكان سهل الشعر، وكان كثير التجنيس يأتيه عفوا من غير تكلف، ولأجل ذلك حسن نظمه(...) إن طال في الشعر أعرب، وإن اقتصر أعجب"[3].

نظم الأريسي في أغراض شتى، لكن شعره ضاع ولم يصلنا منه سوى ما ذكره الغبريني، حيث أورد له أربع قصائد ونتفه فيما مجموعه خمسون بيتا كلها في الغزل والنسيب، كما كانت له كأهل عصره موشحات لكنها لم تصلنا أيضا، ومن نظمه، قوله[4]:

لعلك بعـــد الهجر تسمح، يا بدرُ بوصـــــل فقد أروى بمهجتي الهجرُ

---

[1] الغريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق عادل نويهض. منشورات دار الأفاق الجديدة. بيروت. ط2. 1979. ص334

* لم يذكر الغبريني شيئا عن تاريخ ميلاده ووفاته، واكتفى بالقول أواسط القرن السابع الهجري.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص15.

[3] الغريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص337.

[4] نفسه. ص338.

أبيت كما ترضى الكآبة والأسى وأضحي كما تهوى الصبابة والفكرُ
إذا قنــطت نفسي ينادي بهاالرجا رويدك كـــــم عسر على أثره يُسْرُ
وان ذكرت يـــوم الفراق تقطّعت علائق آمال يـــــــــرحمّها الذكرُ
ولا أنس يوما للســــــرور وبيننا عتاب كبرد الماء لكـــــــنه الجمرُ

يتراء لنا الأريسي في هذه الأبيات متذللا لمحبوبته أن تسمح له بالوصل تخفيفا لآلام البعد والهجر، وإنه بسبب هذا البعد يبيت محزونا ويضحى مفكرا مهموما، لكن الرجاء يناديه أن لا يقنط فبعد العسر يسر، وأمام هذا الأمل المنبعث يتذكر الشاعر أيام اللّقاء مع صاحبته وكيف كان يوم سرور وبهجة، بالرغم مما شابه من شظايا عتاب كالجمر[1].

وفي قصيدة أخرى لا تقل حسنا عن الأولى، نجده يقول[2]:

أهل الحمى هل لكم عن قصتي خَبَرُ وإن ليلي بـــــــليلي كله سَهَرُ
وفي ضـــــــــلوعي نيران يضرّمها دمع على صفحـات الخد ينهمرُ
لما رأيت بدور الحـــــــــيّ سافرة عن النـــقاب بدا لي أنه السفرُ
ولا عـــــــــوامل إلاّ من قدودهم ولا صـوارم إلا ما انتضى الحورُ
سألـــــتك اللّه يا حادي المطي بهم رفـــــقا عليّ لعلّ الصدع ينجبرُ
عرج عـــــــــليّ فلي قلب يميل إلى حـديث من قتلوا منا ومن أسروا
وأنت، يا ســعد، إن غنت ظباؤهم فقف تعاين فؤادي كيف ينفطر

في هذه القصيدة يعرض الإدريسي " قصته على أهل الحمى؛ وأن حبه ليلي يشغف قلبه حتى ليبيت مسهدا، وفي ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده، ورأى بدور الحي سافرة فعرف أنها تستعد للسفر، وتراءت له قدودهن كأنها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال(...) ويسأل

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص179.

[2] الغريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص339.

حادي المطي أن يرفق به لعل الصدع الذي أحدثته صاحبته في فؤاده ينجبر، كما يسأله أن يميل بالركب عليه، فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتلن منهم ومن أسرن"[1].

استطاع الأريسي من خلال هذه القصائد القليلة التي وصلتنا أن يبين شاعرية فذة راقية جدا، والفضل في التعريف به وبإنتاجه يعود للغبريني الذي ترجم له وذكر أشعاره، فلولاه ما وصلنا عن خبره شيئا.

-التدلسي الجزائري (خلال القرن السابع الهجري)

أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام، أصله من تدلس، وسكن بجاية، برع في الأدب، له علم بالتاريخ وله حظا من الفقه، ولى القضاء في بعض أكوار بجاية[2] ، لم يذكر الغبريني تاريخ ميلاده ولا وفاته واكتفى بأنه من القرن السابع دون تحديد دقيق.

سجلت كتب الأدب للتدلسي شعرا صافي الديباجة، جامعا بين السلاسة والمتانة والسهولة[3]، منه قوله[4]:

ولو لم ينبني غير أني أحـــــبه سعدت بذاك القدر عمري ولا أشقَى
كفى بي عزا أنه لي ســـــيّدٌ وإنّـــــــــــي عبد لا أريد له عتقا
وما لي والعتق المكدر عيشتي رضيت بأن أبقـــــــى لمن شفَّني رِقا
فلم يبق مني غير نفـــس رقيقة تميل لأن أهوى من الـــحسن ما رقا
يخالط مني الروح حتى كأنني أرى مخَّ عظمي في الهوى يرى قد دقا

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص 180.

[2] الغريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص 341.

[3] محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري. ص72.

[4] الغريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص341 وما بعدها.

والقصيدة طويلة سار فيها الشاعر على نهج المتصوفين في وصف لوعة النفس العاشقة، واشتياقها للقرب من الحبيب والاستماع بجماله "وقد تجلى واضحا تحكم الشاعر في لغة الرمز الصوفي ومعانيه في دروب المحبة الالهية (...) ومن السهل على القارئ أن يستلهم بيسر تأويلات المعاني، حيث يتسامى الشاعر المتصوف بمقاصده عن المقاصد الشكلية الظاهرة"[1].

-عمارة بن يحي بن عمارة (المتوفى بعد 585هـ).

أبو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني، له علم وأدب وفضل ونبل، تولى القضاء في بعض نواحي بجاية، كان متقدما في علم العربية والأدب، له تأليف في علم الفرائض منظوم، وله تواشيح في غاية الحسن[2].

يذكر الغبريني أن له ديوانا شعريا، لكنه لم يطلع عليه، وقد اكتفى في مقابل ذلك بذكر بعض من شعره، منه هذه القصيدة التي قالها في مقام الأسر للوالي الجديد فتلقاها الوالي بالقبول[3]:

سلام كعرف المندل الرطبة في الجمر وإلاّ كما هب النسيم على الزهر
فلله درّ مقلتين بعبرة تعبّر فوق الخد عن كامن السر
وقد راعني إيماض برق بذي الغضا كما ابتسم الزنجي عن بهج الثغر
بدا لي أن الليل أوْرى زناده ولا نار إلاّ نور برق له يسري
ونار بأكبادي أكابد حرّها وقلب سليم قلّب في لظى جمر

وفي ذكر مناسبة هذه القصيدة يقول الغبريني أن بني غانية لما ثاروا على الموحدين واستولوا على بجاية، عينوا عمارة بن يحي بن عمارة قاضيا

---

[1] السعيد بخليلي. الشعر الجزائري في العصر الموحدي دراسة في موضوعاته وبنياته الفنية. ص35.

[2] الغريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص45.

[3] نفسه. ص 47.

عليها، لكنه وقع في أيدي الموحدين أسيرا من بعد استرجاعهم لبجاية، وجيء به مصفدا، وبقي معتقلا مع أصحابه إلى أن كتب هذه القصيدة للوالي الجديد، طلبا للصفح والعفو.

وعليه، فإن هذه القصيدة تندرج ضمن أدب الاستعطاف الذي راج عند المشارقة والمغاربة على حد سواء، وقد وفق الشاعر في تحقيق مبتغاه ونال رضى الوالي وعفوه، أما من الناحية الفنية فإن ما يلحظ على أسلوب الشاعر أنه "يهتم بالبديع ويطلبه طلبا"[1].

-النثر.

كما سبق وأشرنا إلى أن اهتمام الموحدين بتنشيط الحركة العلمية انعكس بالإيجاب على الجانب الثقافي في فترة حكمهم، ولم تكن الجزائر - بحكم خضوعها لسلطانهم - بمعزل عن هذا الازدهار الثقافي، إذ نبغ فيها الكثير من أعلام النثر الفني، والدليل على ذلك أن أغلب الشعراء الذين أشرنا إليهم آنفا كانوا إلى جانب قرض الشعر كتابا، لكن الإشكال أن كتب السير والأخبار لم تحفل بتقصي النصوص النثرية التي كتبها الأدباء الجزائريون خلال فتره حكم الموحدين*، بل وأكبر من هذا، لم تحفل بالتعريف بهؤلاء أصلا، باستثناء ما أورده الغبريني صاحب الدراية لما عرف بهؤلاء العلماء والأدباء وبنصوصهم الشعرية والنثرية على حد سواء، ومن بين النصوص التي ذكرها الغبريني؛ وصية لابن نعيم الحضرمي المتوفى بقسنطينة سنة 636هـ، وفيها يقول:

"هذا ما أودع العبد اللّهَ الذي خلق الأشياء، ورزق الأحياء، وملك العالمين، وحفظ السموات والأرضين، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه

---

[1] السعيد بخليلي. الشعر الجزائري في العصر الموحدي دراسة في موضوعاته وبنياته الفنية. ص37.

* باستثناء ما خلفه لنا محمد بن محرز الوهراني صاحب المنامات، إذ عد الكتاب المعروف باسم منامات الوهراني أحد النصوص المؤسسة للأدب العجائبي في الأدب الجزائري القديم.

وجميع ما خولهم من نعمة ظاهرا وباطنا، وصير ذلك إلى أمانته، وأسلمه إلى رعايته، واستحفظه في ذلك كله، وتبرأ إليه من حوله وقوته، ولم يرج سوى فضله، وهو الحفيظ الذي لا يهمل، الوكيل الذي لا يغفل، الجواد الذي لا يبخل"[1].

تعد هذه الوصية واحدة من آلاف الوصايا التي كان أهل الصلاح يكتبونها تضرعا للّه ليرعى ذريتهم وأهليهم، وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، وما يلحظ على ألفاظه هذه الوصية أنها منتخبة دون تكلف ولا تصنع إلاّ ما جاء عفوا من دون قصد[2].

أما عن كتّاب الرسائل الديوانية فقد أشار الغبريني إلى أن محمد الوغليسي -دون أن يحدد تاريخ ميلاده ولا وفاته واكتفى بالقول خلال القرن السابع -كان أحد كتاب بعض الولاة في بجاية، حيث يقول لما ترجم له -دون ذكر رسائله -" عليه كان المعتمد في وقته في المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا (...) وولي الخطابة بجامع القصبة المحروسة في بجاية، وكان فصيح القلم واللسان بارع الخط"[3].

أما الشيء الذي يحسب للنثر الجزائري القديم خلال فتره حكم الموحدين هو ظهور فن المنامات والمقامات على يد محمد بن محرز الوهراني(ت575هـ).

---

[1] الغبريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص332.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- عصر الدول والامارات. ج10. ص220.

[3] الغبريني :عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. ص282.

لقد كان الوهراني أديب صناعة الإنشاء، بارعا في الهزل والسخرية، نشأ في وهران، وبعدها رحل إلى المشرق، تولى الخطابة في جامع داريا بنواحي دمشق، وظل في تلك الوظيفة حتى توفي سنة 575هـ[1].

اشتهر الوهراني بكتابة المنامات والمقامات كما خلف الكثير من الرسائل والفصول الهزلية، ويعدّ المنام الكبير النتاج الأبي الذي حقق له شهرته وذياع صيته بين الكتاب، حيث يقول ابن خلكان مشيدا به " وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه (...) ولو لم يكن فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوته ولولا طوله لذكرته..."[2].

استطاع الوهراني من خلال مناماته أن يقدم لنا نصا رمزيا مشبعا بالدلالات والرموز من خلال المزج بين الواقع والخيال والممكن بالمستحيل والوعي باللاوعي، والمعقول باللامعقول، بواسطة سرد تجري أحداثه في العالم الآخر المتخيل، وضمن فضاء مكاني مفتوح يتلاشى فيه الزمن، ولا سيما أن كاتبه اتخذ من المنام قناعا اختفى وراءه لينتقد جوانب سياسية واجتماعية وأدبية وفكرية في عصره بكل حرية[3].

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص305.

[2] ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر – بيروت. ط1. 1971. ج4. ص 385.

[3] علاء الدين محمد رشيد: المنامات لون نثري في الأدب العربي دراسة في المنام الكبير للوهراني. مجلة جامعة تكريت. المجلد 19. العدد7. 2012. ص325- 326.

الأدب في عهد الزيانيين (633 هـ - 962 هـ)

إذا كانت الحياة الثقافية قد شهدت في العهدين الحمادي والموحدي نهضة شاملة بانتشار مختلف العلوم والفنون، فإن الفترة الزيانية تعد مرحلة اكتمال ونضج لهذه العلوم[1]، ومما ساهم في ازدهار الحركة الثقافية في هذا العصر الطويل الذي يزيد عن الثلاثة قرون هو التنافس الحفصي والزياني والمريني على " استقدام العلماء إلى بلاطهم، والتجمل بهم في مجالسهم والاستنارة في معارفهم"[2].

لقد أصبحت تلمسان، والحال هذه، خلال فترة حكم الزيانيين حاضرة من أعظم حواضر العلم والمعرفة بالعالم الإسلامي، حيث نبغ فيها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء، وقصدها العديد من طلاب العلم من مختلف جهات العالم العربي، وقد أعان على هذا النضج الثقافي فيها[3] الاحتكاك الأدبي الذي وقع بين مثقفيها وأعلام الثقافة المهاجرة وبخاصة مهاجري الأندلس الذين استوطنوا تلمسان وبجاية وقسنطينة[4].

لقد كان لهذا الاحتكاك الثقافي -إلى جانب شغف الحكام بتشجيع الحركة الثقافية -أثره الواضح على الإنتاج والإبداع، وهو ما فسح "المجال لنبوغ طائفة كبيرة من أعلام الثقافة في القرون الثلاثة(7 -8 -9)"[5].

---

[1] رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ص309.

[2] السابق. ص310.

[3] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص109.

[4] رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ص310.

[5] نفسه. ص311.

ومن على شرفة هذا الازدهار الثقافي الذي بلغت فيه العلوم بمختلف أنواعها قمة نضجها نجد أن الفنون الأدبية بجنسيها شعرا ونثرا، قد ارتقت وتطورت تطورا محسوسا من حيث الكم ومن حيث الكيف، مع تسجيل ملاحظة أن أدب الجزائر الزياني " تأثر في هذه الفترة بأدب المشرق وأدب الأندلس دون أن يفقد شخصيته الجزائرية وما لها من مميزات"[1].

1 -الشعر.

شهد هذا العصر إلى جانب الموضوعات التقليدية من مدح وغزل ورثاء وهجاء وغيرها، ظهور موضوعات أخرى جديدة كبكاء الشباب، والقصة الشعرية، وشعر الفروسية كما يبدو في شعر أبي حمو، وظهور التصوف الفلسفي عند ابن خميس والششتري، وانتشار المولديات والمدائح النبوية عند أبي حمو ويحي بن خلدون، وأخيرا نزعة الزهد والتشاؤم[2] لدى عديد الشعرء. ومن أبرز شعراء هذا العصر نذكر:

-ابن خميس (650 -708هـ).

أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحميري التلمساني، ولد حوالي650هـ وتوفي بغرناطة قتيلا سنة 708 هـ. كان شاعرا فحلا يمتاز شعره بغرابة الألفاظ والسرد القصصي والروح الصوفية وإضافة إلى سمة التشاؤم الغالبة عليه[3]، وستكون لنا معه وقفة تفصيلية في محاضرة مستقلة نوضح من خلالها أبعاد تجربته الشعرية وجماليتها.

-أبو حمو موسى الثاني(723 - 791هـ)

---

[1] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص123- 124.

[2] رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ص320- 321.

[3] نفسه. ص323.

أبو حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، أحد ملوك الدولة الزيانية، ولد في غرناطة سنة 723هـ، وانتقل إلى تلمسان في سنة ولادته، حيث نشأ بها ودرس على أشهر علمائها[1]، ولما تولى السلطنة برز كأحسن كاتب في السياسة السلطانية حيث ألف كتاب «واسطة السلوك في سياسة الملوك»[2] الذي أودع فيه آرائه سياسية.

كان أبو حمو شاعرا يحسن النظم، وقد احتفظ صاحب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بالكثير من شعره، الذي كان موزعا ما بين وصف للحروب والمعارك وفخر ورثاء ومولديات، ومن النماذج التي نستدل بها - على سبيل التمثيل لا الحصر -قوله في إحدى مولدياته[3]:

حياتي وموتي في هواكم وإنني أعلل نفسي فيكم بالأماني
يا أهل نجد أنجدوني على الهوى فإني في بحر من الشوق لجيّ*
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى وحالي على حكم النوى غير مخفي
تناسيتم عهدي وحفظ مودتي وحبكم في القلب ليس بمنسي
وما ارتجي إلا شفاعة خير من أتى بالهدى يهدي بدين حنيفي**
به يرتجي العاصون غفران ذنبهم وما عملوا في الدهر من عمل سي***
بمولد قد أشرق الكون كله وكل سنا شمس وبدر ودري

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص125.

[2] رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ص328.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص211- 212.

* لجي: متراكم الأمواج.

** حنيفي:مستقيم لا عوج فيه.

*** سي: سيئ وحقق القافية.

ففي هذه المولدية يقر أبو حمو بحبه لذات النبي - صلى الله عليه وسلم - ويشكو في الآن نفسه شوقه إليه، وكله في ذلك أمل أن ينال شفاعته، وأن يغفر له الله وغيره من العاصين ما اقترفوه من آثام وذنوب.

أما في الفخر بانتصاره على المرينيين، فيقول[1]:

لقد نهضت بعون الله متكلا على الإله ومن يرجموه لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء به كالبحر أعظم من به عسكر لجب
من كل ليث شجاع فارس بطل حامي الذمار من الأعاجم والعرب*
على سوابق خيل ضمّر عُرُب تزهى بحليتها كالخرد العُرُبِ
بها وطننا بلادًا لا سبيل لها وما أردنا تناولناه من كثب

يفتخر الشاعر في هذه الأبيات بنصره على المرينيين بعد أن شن حربا عليهم مستعينا بربه متكلا عليه، وقد نازلهم بجيش ضاق الفضاء به، كأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان يركبون خيولا صارمة نجيبة، تزهو بجمالها زهو المعجبات بحسنهن، وهذه الخيول بفرسانها ما وطئت أرضا إلاّ وخضعت لهم وانقادت إليهم[2].

وبهذا الأسلوب الجميل الرائع في التصوير سار أبو حمو في نسج قصائده ومقطوعاته.

-الثغري التلمساني(أواخر القرن الثامن الهجري)

---

[1] نفسه. ص155.

* الذمار: الحمى وما يحميه من الأهل والولد. الخرد: جمع خريدة؛ الجميلة. كثيب: قريب.

[2] السابق. ص155- 156.

أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري، شاعر، أديب، كاتب من أهل تلمسان، ومن أشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها[1].

لم تذكر كتب السير والتراجم تاريخ ميلاده ولا سنة وفاته، ولم تشر أيضا إلى تكوينه الأدبي، "غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبي يختار للعمل في دواوين الدولة، واختير الثغري وأصبح كاتب الإنشاء لأبي حمو الثاني، كما أصبح شاعره الفذ الأول"[2].

نظم الثغري في الغزل والوصف والرثاء، ولكن أغلب قصائده كانت في المديح بحكم ملازمته للبلاط الزياني، فمن مدائح الثغري لأبي حمو موسى الثاني قوله[3]:

يا إمام الهدى وشمس المعالي وغمام الندى وبدر النوادي
لك بين الملوك سر خفي ليس معناه للعقول ببادي
وكأن البلاد كفك مهما كان فيها ينتمي لعناد
لم تزل دائما تحن إليكم كحنين السقيم للعواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الأعادي
فأريحوا الجياد أتعبتموها وأقرّوا السيوف في الأغماد

يشيد الثغري في هذه الأبيات بخصال ممدوحه فجعله إمام الهدى وشمس المعالي، وسحاب الندى وبدر هادي، ويستمر الثغري في مبالغاته حين يقر أن ممدوحه يختلف عن الملوك بسر خفي جعله محبوبا عند شعبه، ثم يشر

[1] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص92.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص139.

[3] الثغري التلمساني: الديوان. تحقيق: نوار بوحلاسة. مخبر الدراسات التراثيه. جامعة منتوري. قسنطينة. الجزائر. 2004. ص50.

عليه أن يريح جياده، ويرجع السيوف إلى أغمادها، ويعش هنيء البال لأن قوته أرغمت أنوف الأعادي[1].

ومن شعره في إحدى مولدياته قوله[2]:

مددت يدي يا ذا المعـــــارج راجيا وأصبحت آمـــــالي إليك حواديا
عسى جودك الفياض يدني وسائلي وينشِى مـــــن العفو العميم غواديا
ويفتح لي بابا إلى منهـــــج التقى فألقـــــى التداني يوم ألقى التناديا
لدى موقفا يوم الحساب وهـــوله يسوم الورى كرب يشيب النواصيا
هناك ينادى أشفع تشفع محـــمد وسـل ما تشاء تعطى المنى والأمانيا
فينقذنا من ذلك الهول جـــاهـــه ويحجرنا عن زفـــــرة النار واقيا

في هذه الأبيات نجد الثغري التلمساني يتوجه في جزئها الأول إلى الله سبحانه وتعالى مناجيا ومتضرعا طالبا العفو والمغفرة والصفح، وفي جزئها الثاني يتوجه بالخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -متوسلا به طالبا شفاعته.

-التلاليسي(بعد 767هـ)

أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة بن علي التلاليسي، طبيب، شاعر، أديب من أهل تلمسان، برع في الطب، فقربه السلطان أبو حمو موسى الثاني(760 - 791هـ) واتخذه طبيبا لنفسه[3]، لم تذكر المصادر التي أرخت له تاريخ ميلاده ولا سنة وفاته.

يعد ما وصلنا من منظوم التلاليسي شعرا جيدا يشهد له بطول الباع في قرضه القصائد التي قالها في كل المناسبات التي وقعت بقصر السلطان أبي

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. 139- 140.

[2] الثغري التلمساني: الديوان. ص169- 170.

[3] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص63.

حمو[1]، وبالإضافة إلى مدح السلطان وحاشيته نجد أن التلاليسي نظم الكثير من القصائد والموشحات في المديح النبوي وبخاصة المولديات التي كان الحكام الزيانيون معروفون بإحياء احتفال المولد النبوي، ومن مولدياته هذه الموشحة التي نظمها احتفالا بالمولد النبوي بين يدي السلطان في الثاني والعشرين من صفر سنة 762هـ، قائلا[2]:

يا ويح صب بان عنه الشباب ❖ وأودع ❖ لهيب وجد عندما ودعوا

أودى به الوجد وفرط الجوى

وهد منه الشيب كل القوى

ولا له مما اعـــــــتراه دوا

من فقد الخلان مثلي وشاب ❖ ما ينفع ❖ إلاّ ليالي الوصل لو يرجع

آه لأيام الصبا لو تعـــــــود

كان بها قد لاح بدر السعود

ترى بها ريب الزمان يـــعود

وتنتهي بـ:

أهل تلمسان به آمنـــــــين

أكل وشرب وقرار معـــين

قال بها شخص من التائبين

لاش يحسدوني ويقول لي تاب ❖ إش يطمع ❖ أني كنترك عشقي أو نقطع

نظم التلاليسي في هذه الموشحة في ذكرى المولد النبوي المتزامنة مع الجيش الضخم الذي سار به السلطان لفتح الجزائر في الثاني والعشرين من شهر صفر من سنة 762 هـ، وما يلحظ على هذه الموشحة وغيرها من

[1] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص185.

[2] يحي بن خلدون: بغية الرواد في الملوك من بني عبد الواد. تحقيق: بوزياني الدراجي. دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع. الجزائر. (دط). 2007. ج2. ص195 وما بعدها.

موشحاته تضمينها مقطعا مدحيا في السلطان إضافة إلى توظيف كلمات عامية، مثلما هو حاصل في خرجة هذا الموشح.

هذا، والإضافة إلى ما ذكرنا، فإن ما يميز شعر التلاليسي أيضا هو البكاء على الشباب والتلهف على أيامه الماضية، ومن ذلك قوله في هذه القصيدة التي نجتزء منها هذه الأبيات[1]:

أأصبو ورأسي بالمشيب غدا حالي وحال لذاك المشيب لما بدا حالي
وكيف لمثلي بالتصابي وبالهوى وهل للتصابي أن يمر على بالي
وعني شبابي قد تولى وقد مضى فقلبي منه لا هنيء ولا سالي
علا مفرقي جيش المشيب فها أنا جديد شبابي مذ ألم به بالي
نفائس أنفاس الشباب قد انقضت ومالي من بعد الشبيبة من مالي

-عبد الله البسكري (ت 713هـ)

عبد الله بن عمر بن موسى البسكري، لم تذكر كتب الأخبار والسير شيئا عن مولده ونشأته باستثناء ما أورده ابن حجر العسقلاني لما قال: " قال القطب الحلبي، كان رجلا صالحا متواضعا مقصود الزيارة، وله نظم وكلام حسن مات في ثامن المحرم سنة 713هـ بالمدينة ودفن البقيع"[2].

لم يصلنا من شعر عبد الله البسكري سوى قصيدة واحدة في المدائح النبوية، أوردها محمد الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف، وقد علق عليها أبو القاسم سعد الله بقوله: " وتحتفظ الوثائق بقصيدة نادرة في مدح المدينة المنورة(طيبة) قالها الشاعر الصوفي أبو محمد عبد الله بن عمر

[1] السابق. ص288- 289.

[2] ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق: محمد عبد المعيد ختان. مجلس دائرة المعارف العثمانية. صيد أباد. الهند. ط2. 1972. ج3. ص59.

البسكري، وهي القصيدة التي أكثر الكتاب من تداولها والنسج على منوالها لجودتها وصدقها"[1] من أبياتها التي وصلتنا[2]:

دار الحبيب أحق أن تهواهـــــــا وتـــحن من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بـــزورة يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
فلا أنت أنت إذا حللـــــت بطيبة وظللـــــت ترتع في ظلال رباها
معنى الجمال متى الخواطر والتي سلبت عقـول العاشقين حلاها
لا تحسب المسك الذكي كتربها هيهات أيـــن المسك من رياها
طابت فإن تبغ التطيب يا فـــتى فأدم على الســاعـات لثم ثراها

تندرج هذه القصيدة في إطار الشعر الديني وبالتحديد ضمن موضوع المدائح النبوية، التي كثيرا ما طرقها الشعراء الجزائريون ولاسيما خلال العهد الزياني، وعبد الله البسكري واحد منهم، وهذه القصيدة كما هي ماثلة أمامنا نظمها في التغني بدار الحبيب معبرا من خلال أبياتها عن حنينه وشوقه إلى ذكراها.

ولعل ما يميز شعراء الفترة الزيانية عن غيرها من الفترات الأخرى من حيث الكم هو كثرة عدد الشعراء الذين وصلتنا أسماؤهم أما نتاجهم الشعري فقد تباين بين كثرة وقلة، ومن هؤلاء الشعراء الذين وصلنا بعض من أخبارهم وأشعارهم نذكر على سبيل التمثيل:

- أحمد بن علي المليانى المتوفى سنة 715هـ.
- محمد بن عمر المليكشي الجزائري المتوفى سنة 740هـ.
- محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المتوفى سنة 636هـ.

وغيرهم من الشعراء، أما في التصوف فنجد:

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي. ط1. 1998. ج2. 245.

[2] محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف. مطبعة بيير فونتانه الشرقية. الجزائر. 1906. ج2. ص231- 232.

- الحرالي التجيبي المتوفى سنة 638هـ.
- أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الخطيب المتوفى خلال القرن 7هـ.
- الششتري أبو الحسن علي النميري المتوفى سنة(668هـ).

وغيرهم من الشعراء.

2 -النثر:

ازدهر نثر الجزائر الزيانية ازدهارا كبيرا، حتى أنه لم يكن نثرا واحدا، بل كان ألوانا متعددة، منه[1]:

-**نثر الفقهاء**: وهو نثر علمي يعمد إلى المعاني ولا يهتم بالأساليب البيانية ومثاله ما كتبه أبو عبد الله الشريف الونشريسي وغيره.

-**نثر كتاب التراجم والمؤرخين**: وهو نثر يتوسط الأدبي والعلمي ومن نماذجه ما كتبه الغبريني في عنوان الدراية، وابن خلدون في بغية الرواد.

-**النثر الفني**: وهو ما نجم عن تجربه فكرية أو شعورية وتضمن التأنق في العبارات والجمل، ومما وصلنا في هذا النثر نذكر:

-**الخطب والوصايا.**

من الطبيعي أن تكثر الخطب والوصايا في الفترة الزيانية، والفضل يعود لصاحب بغية الرواد الذي ساق لنا طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها، و من أشهر هؤلاء نجد: عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي إمام الجامع الأعظم بتلمسان (كان حيا سنة 654هـ)، وأبا محمد عبد الله المجاصي المتوفى سنة 641هـ، وسعيد العقباني المتوفى سنة 811هـ خطيب الجامع الأعظم بتلمسان، لكن لأسف كل الأسف أن خطبهم ومواعظهم لم تصلنا[2].

---

[1] رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته. ص319.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. 225.

هذا ، ولم تصلنا الوصايا خلال فترة الجزائر الزيانية لا من حكامها ولا من شيوخها وعلمائها باستثناء وصية أبي موسى حمو الثاني لابنه أبي تاشفين*؛ وهي وصية طويلة استحالت إلى كتاب سماها «واسطة السلوك في سياسة الملوك»[1]، منها - على سبيل التمثيل -ما قاله لابنه من وصايا ترشد إلى تغليب العقل على الهوى، وتحض على ملازمة التقوى، ما نصه: " أعلم يا بني أن العقل راحة فأجعل عقلك راحة نفسك، وجالب أنسك، وأجعل العقل ميزان رأيك، والفكرة مرآة عقلك، وأعلم أن الدنيا متقلبة فلا تغتر بغرورها ، ولا تطمئن لسرورها ، ولا تفرح لها إذا أقبلت، ولا تحزن عليها إذ أدبرت، يا بني إن الاغترار بالدنيا باطل، فاركب لها جواد الحق، وإذا أعطيت ما يفنى فاشتر به ما يبقى..."[2].

تعد هذه الوصية حثا لأبي حمو موسى الثاني لابنه على ترشيد العقل على الهوى وحضا على ملازمة التقوى، والأكيد أن ما يلفت النظر في هذه الوصية وما تحمله من نصح وإرشاد هو اعتمادها على السجع وضروب البديع ، وهي وإن دلت على شيء فإنما تدل على رقي النثر الجزائري خلال القرن الثامن الهجري بحيث أصبح الكاتب والقول لشوقي ضيف " يلائم بين الكلمات في السياق بحيث يأتي مع الكلمة بشقيقتها التي يحسن أن

* نفسه. ج10. ص226.

[1] قسم الكتاب إلى أربعة أبواب وكل باب يتضمن بدوره عدة قواعد، الباب الأول: جعله في الوصايا والآداب والحكم التي ترشد إلى طرق الصواب، الباب الثاني جعله في قواعد الملك وأركانه وما يحتاج الملك إليه في قوام سلطانه، الباب الثالث خصصه للأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله، أما الباب الرابع فكان في الفراسة وهي خاتمة السياسة، ينظر: أبو حمو موسى بن زيان. واسطة السلوك في سياسة الملوك. مطبعة الدولة التونسية. 1862. فهرس الكتاب.

[2] أبو حمو موسى بن زيان. واسطة السلوك في سياسة الملوك. مطبعة الدولة التونسية. 1862. ص7.

تصاحبها والتي تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه"[1].

-الرسائل الديوانية والإخوانية

من غير المعقول أن تتأسس دولة دون أن يصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة، وهذا حال بني عبد الواد الذين أسسوا دولة الزيانيين بزعامة يغمراسن، فمنذ سنة 633هـ وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين، وأتخذ أديبا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتبا هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخطاب الغافقي الذي يصفه صاحب البستان بأنه[2] " من أبرع الكتاب خطا و أدبا وشعرا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه (...) ارتحل إلى تلمسان وكتب بها عن أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان توفي سنة ستة وثلاثين وستمائة"[3]، وبوفاته خلفه ابن خميس الذي ظل يكتب له ولابنه عثمان الأول[4].

أما أبو موسى حمو الثاني فقد جعل - والقول لصاحب بغية الرواد - أبا عبد الله محمد بن هدبة منشئ الرسائل في ديوانه[5].

ونشير هنا، ونحن نورد أسماء الكتاب المتعاقبين على تولي دواوين الرسائل الديوانية للجزائر الزيانية، أنه تعذر علينا أن نحصل على نصوص هؤلاء الكتاب، لغياب المهتمين بتسجيلها فضاعت ولم تصلنا، وفي هذا يقول شوقي ضيف: " ونحن إنما نقف على كتاب الدولة الزيانية على أسماء، ولا

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص226- 227.

[2] نفسه. ج10. ص231.

[3] ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. المطبعة الثعالبية. الجزائر. (دط). 1326هـ- 1908م. ص227.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص231.

[5] يحي بن خلدون: بغية الرواد في الملوك من بني عبد الواد. ج1. ص127.

نقف على كتاباتهم"[1] وهو ما فوت علينا فرصة استكناه بنيتها شكلا ومضمونا.

وليس هذا فحسب، بل إن ما يقال عن الرسائل الديوانية يقال أيضا عن الإخوانية، إذ ضاعت ولم تصلنا، باستثناء ما ذكره صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة الذي أورد رسالة لابن خميس ألحقها بقصيدته الصوفية التي مطلعها:

عجبا لها أيذوق طعم وصالها من ليس يخطر أن يمر ببالها

حيث يقول فيها " هذه، أمتع الله ببقائك، وأسعد بلقائك، وأراها بما تؤمّله من شريف اعتنائك، وترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، وتعترف له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقيال، ومقصورة الأسرّة والحجال، بل أسيرة الأساوير والأحجال، على أنها حليفة آلام وأوصاب، وأليفة أشجان وأطراب، صبابة أغراب من صيّابة أعراب "[2].

وهي رسالة طويلة أخذنا منها هذا الجزء للتمثيل على أسلوبه في الكتابة والذي لا يخفى على أحد اعتماده المفرط على السجع وضروب البديع والتكلف، وهو ما يؤكد حقيقة أن تأنق الزيانيين في كتاباتهم يعكس تأثر ذوقهم واندماجهم "في الذوق الأندلسي الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة في الرسائل الشخصية والديوانية، وحتى في كتب التراجم"[3] بصفة عامة.

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص131.

[2] لسان الدين بن الخطيب: الاحالة في أخبار غرناطه. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط1. 1424هـ. ج2. ص398-401.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص236.

الأدب في العهد العثماني (962 - 1830)

تعد فترة الجزائر العثمانية فترة ضعف وانحطاط ثقافي وعلمي، إذ كان معظم الأتراك الذين نزلوا في الجزائر رجال حرب وقتال، وسياسة، وكان اهتمامهم منصبا حول تثبيت أركان الدولة، وبناء قوتها الدفاعية لردع أعدائها، على حساب الاهتمام بتنشيط الحركة العلمية والأدبية[1]، والحق إن هذا الجمود والتردي ليس خاصا بالجزائر، بل إن معظم الأقطار العربية والإسلامية -الخاضعة لسيطرتها -تعيش حالة تخلف مماثلة[2]، وفي هذا يقول أبو قاسم سعد الله " ولو كانت الثقافة في بقية العالم الإسلامي حية نشيطة لاستفاد منها الجزائريون أيضا، لأن معظم علمائها كانوا يرحلون في طلب العلم إلى المعاهد الإسلامية"[3].

إن التسليم بأن الجزائر كانت تعيش جمودا وتعثرا علميا وثقافيا، لا يعني بأي حال من الأحوال انعدام حركة علمية وثقافية، إنما المقصود أن الواقع الثقافي لم يكن كما كان عليه في فترة حكم الزيانيين والموحدين والحماديين من ازدهار وتطور وإبداع.

ومهما يكن من أمر، فان المتمعن في البيئة الثقافية للجزائر العثمانية يجد بعض الرجال من أهل الثقافة زاولوا قرض الشعر وأصابوا منه بعض الشيء، وبعضهم الآخر عالج النثر وفنونه، وقد أحسنوا فيه الكتابة والتأليف[4].

أولا: الشعر.

---

[1] جمال سعادنة: الشعر الجزائري في العهد العثماني. ص 12.

[2] نفسه. ص 12.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. ص 19.

[4] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص 225-226.

برز في هذه الفترة من فترات الجزائر القديمة العديد من الشعراء "نظموا الشعر، واعتمدوا موضوعاته، وأغراضه التقليدية المعروفة، كالمدح، والرثاء، والوصف، والفخر... وغيرها من الأغراض التي جعلوها صدى لواقع عصرهم، فصورت تفاعلهم مع الأحداث، وتأثرهم بما يحيط بهم"[1]، ومن أبرز هؤلاء الشعراء نذكر:

-عبد الله المنداسي(ت 1088هـ).

أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي* الأصل، عاش بتلمسان في القرن الحادي عشر الهجري[2]، لم تذكر المصادر تاريخ مولده ولا حديثا عن أسرته ونشأته، باستثناء ما ذكره محقق ديوانه من أنه التحق "ببلاط الرشيد العلوي وعاش تحت كنفه بسجلماسة، وبالمغرب اشتغل بتعليم مولاي اسماعيل مدة، وفي اثناء ذلك تقلب الشاعر بين فاس ومراكش"[3].

يعد المنداسي من فحول الشعراء واستطاع بموهبته الشعرية أن يجمع بين الشعر الملحون والشعر الفصيح. حيث تناول في اللونين الشعريين - الشعبي والفصيح -أغراضا تقليدية متعددة منها المديح، الغزل والتصوف والمدائح النبوية والموعظة[4] والوصف، ومن النماذج التي نستدل بها عن قريحته الشعرية، قوله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[5]:

هل رأيتم أو سـمعتم حسنا في الورى من حسنه الحسن اكتمل
أحمد المبعوث فينـا رحمة خـــــــير من قام بحق وكفل

---

[1] جمال سعادنة: الشعر الجزائري في العهد العثماني. ص 29.

* منداس بلدة بمدينة غليزان.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص 68.

[3] سعيد المنداسي: الديوان. تحقيق رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. (دط). (دت). ص 06.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص 162.

[5] نفسه. ج10. ص 215.

آية اللّه أمين صـــــــادق وحبيب اللّه بـــــــــــر منتضل

يتحدث المنداسي في هذه الأبيات عن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - مادحا لحسنه، معليا لرسالته التي اصطفاه اللّه دون العالمين فهو - عليه الصلاة والسلام -" المبعوث رحمة للعالمين، أعظم من راعى الحقوق وأداها، آية اللّه الأمين الصادق وحبيبه البر المجاهد في سبيله"[1].

هذا، ولم يشذ المنداسي في شعره الصوفي عن المنهج الذي سلكه المتصوفة عموما في استعمال الرمز للدلالة على المعاني الروحية التي يقصدونها في تجاربهم الصوفية، ومما نستدل به في هذا السياق، قوله في الحب الإلهي[2]:

معشر العشـــاق موتوا في الهوى إن موت العشــق أحلى من عسل
لن تنالوا الوصـــل حتى تنفقوا مـــــن عـــزيز النفس إثر الأمل
....
أيها العذال إن صح الرضـــى مـــــن حبيب يبطل القول العمل
بأبي أفدي عيونا سهـــــرت في الهوى واستعذبت قرب الأجل

إن ما يلحظ على المفردات التي وظفها المنداسي في هذه الأبيات كالحب والعشق، والموت والوصل والعذل وغيرها أنها وإن ارتبطت بدلالات الحب الإنساني المحسوس، فإنها في دلالاتها العرفانية مرتبطة بأخرى روحية ينكشف فيها كل ما هو باطن وخفي.

-عبد الكريم الفكون (988هـ -1073هـ)

أبو عبد اللّه محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون، ولد بقسنطينة سنة988هـ، حيث تلقى مختلف علوم عصره على أيدي شيوخ أجلاء، وبعد بلوغه درجة علمية ومعرفية تولى وظيفة التدريس في

[1] نفسه. ج10. ص 215-216.

[2] سعيد المنداسي: الديوان. ص 35-36.

الجامع الكبير بقسنطينة، توفي سنة 1073هـ، مخلفا وراءه عديد المؤلفات منها: شرح لامية الجمل للمجراد السلاوي، وفتح المالك للإمام بن مالك، وكتاب في القراءات القرآنية[1]، كما خلف إلى جانب هذه المؤلفات وغيرها ديوان شعري في المديح النبوي، والحق إن الفكون -والقول لعبد الله أبو القاسم -لم يسم شعره في المديح النبوي ديوانا، وإنما سماه قصائد، أما الذي أطلق عليه اسم الديوان فهو العياشي الذي بفضله وصلتنا قصائد هذا الديوان الذي نقل منه حوالي مائة بيت في رحلته[2]، ومن النماذج التي نستدل بها على مديحه النبوي، قوله[3]:

أبدر بدتْ في الخافقين سعوده ونورا به الأكوان أضحت تلألأ
له في العُلا أعلى العلا رتبة وفي مراقي ذوي العرفان قدما مبدأُ
أضاءَ وجود الكائنات ببعثه وطلعته الغرا من الشمس أضوأُ
هوَ الغيثُ أحيا الأرض بعد مماتها وخاتم كل الرسل ثمت مبدأ

في هذه الأبيات يتغنى الفكون بشمائل ومناقب النبي -صلى الله عليه وسلم - وعلو مقامه بين سائر الخلق وذوي العرفان، فهو البدر الذي بنوره تتلألأ الأكوان، وبمبعثه أضاء الوجود إضاءة أَضْوء من نور الشمس وكيف لا يكون بهذا النور -يضيف الفكون - ومولده غيثا أحيا الأرض بعد مماتها.

ومن مدائحه، أيضا، قوله[4]:

أحبتنا إني كلفتُ بحب من لهُ العز قِدما والرسالة منصبُ

---

[1] محمد مرتاض: عبد الكريم الفكون من أعلام القرن العاشر الهجري. مجلة الفضاء المغاربي. ماي 2016. ص 5 وما بعدها.

[2] أبو القاسم سعد الله: شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية. دار الغرب الاسلامي. بيروت-لبنان. ط1. 1986. ص 160.

[3] محمد العياشي: الرحلة العياشية. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي. دار السويدي للنشر والتوزيع. أبوظبي-الامارات العربية المتحدة. ط1. 2006. ج2. ص 515.

[4] نفسه. ج2. ص 517.

لدى نوره الأنوار تخبو وكيف لا ومـنه استمدت والشواهد تكتبُ
أيا سيد أفاق النبيـــين كلها وبـــــــدر له فوق المراتب مرتبُ

إن ما يلحظ على معاني هذه الأبيات أنها لا تختلف عن الأبيات السابقة لها، مادام موضوعها واحد وهو مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - فالفكون في هذه الأبيات يجهر بحبه للنبي صلى الله عليه وسلم وتعدد مناقبه وشمائله فهو عليه الصلاة والسلام أهل للعز وجدير بالرسالة التي اصطفاه الله ليؤديها، إنه نور الأنوار وسيد النبيين وخاتمهم.

-المقري التلمساني(986 -1041هـ)

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، ولد سنة 986هـ بتلمسان التي تتلمذ فيها على يد علماء عصره، ثم انتقل إلى مدينة فاس حيث تولى الإمامة في جامعها، وفي سنة 1027 هـ هاجر إلى مصر ثم قصد مكة حاجا، كانت له رحلات متعددة بين الشام والحجاز، استقر آخر أيامه في مصر حيث مارس مهنة التدريس وملازمة العلماء حتى توفي بها سنة1041هـ[1].

كان المقري كاتبا مجيدا وقد ترك مؤلفات عدة قاربت الثلاثين كتابا، وإلى جانب التأليف برع في قول الشعر حيث نظم في الكثير من الموضوعات الشعرية التقليدية من حنين إلى الوطن وغزل ومدح وإخوانيات ومدح نبوي وزهد وغيرها، ومن النماذج التي نستدل بها على تجربته الشعرية قوله في مدح لسان الدين ابن الخطيب[*]:

ليت شعري أي العبارات توفي واجب ابن الخطيب مما أروم

---

[1] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص 238 وما بعدها.

[*] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الكتاب العربي. بيروت-لبنان. (دط). (دت). ج1. ص 111.

وأنا عاجز عن البعــض منها لقصوري ومـــــا العي ملوم
وهو يدعى لسان دين وناهيـ ـك افتخارا به تتـــم الرسوم
فبأي العلى أحـــلى علا من نال فضلا روته عـــرب وروم

في هذه القصيدة التي اجتزأنا منها هذه الأبيات يعبر المقري عن تقديره فيها لابن الخطيب، وقد استهلها " بتمن ممتزج بالخجل من العجز والإخفاق الذي يراوده في نظمه، فعبارات أشعاره لا تهب ممدوحه ما يستحقه من الثناء والتنويه بما حازه من فضل روته العرب والروم"[1].

ومما قاله في الزهد نجد[2]:

والعمر مثل الضيــف أو الطيف ليس لــه أقامهْ
والموت حتم ثم بعـــــــ د الموت أهـوال القيامهْ
والناس مجزيون عـــــن أعـمال مـيل واستقامهْ
فذووا السعادة يضحكو ن وغيرهم يبكي ندامهْ
واللّه يقـــــــــبل منهم مـــا شاء ذلاً أو كرامهْ

يؤكد المقري في هذه الأبيات على ضرورة الزهد في الدنيا وترك ملذاتها، وفي مقابل ذلك يحث على الاستقامة والعمل الصالح طمعا في نيل مرضات اللّه وغفرانه.

-عبد الرحمان الأخضري (1020 -1053هـ).

ولد عبد الرحمان الأخضري في بنطيوس إحدى قرى بسكرة سنة 1020هـ، وبها حفظ القرآن وتتلمذ على يد شيوخها ثم ارتحل إلى قسنطينة حيث أكب على حلقات شيوخها واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم

[1] جمال سعادنة: الشعر الجزائري في العهد العثماني. ص 83.

[2] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج1. ص27.

كالمنطق والبلاغة والتصوف والأدب، ثم عاد إلى موطنه واشتغل مدرسا حتى وفاته سنة 1053هـ[1].

شغف الأخضري بنظم العلوم، فألف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا، منها ما كان في الفلك، ومنها ما كان في الحساب وعلم الفرائض، ومنها ما كان في التصوف، كما نظم الأخضري تلخيص القزويني وسمى منظومته الجوهر المكنون في الثلاثة فنون، وغيرها من المؤلفات[2].

يندرج شعر عبد الرحمان الأخضري ضمن نطاق الشعر التعليمي الذي "لا يخاطب وجدانا بل استخدمه للمعاني العلمية (بحيث) نجد فيه الحقيقة تسبق الخيال، والطبع يغلب التصنع والجزالة في غير ضعف ولا غرابة"[3]، ومن الشواهد التي نستدل بها على شعره، قوله[4]:

الحمد لله الذي قد أخرجنا ... نتائج الفكر لأرباب الحجا*
وحط عنهم من سما العقل ... كل حجاب من سحاب الجهل
حتى بدت لهم شموس المعرفة ... رأوا مخدراتها منكشفة
نحمده جلّ على ... بنعمة الإيمان والإسلام
من خصنا بخير من قد أرسلا ... وخير من حاز المقامات العلا
محمد سيد كل مقتفى ... العربي الهاشمي المصطفى

تعد هذه الأبيات مفتتح منظومة الأخضري في علم المنطق وقد سماها «السلم المرونق في علم المنطق » حيث بدأها -مثلما هي ماثلة أمامنا - بحمد

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. 167-168.

[2] نفسه. ج10. ص 168.

[3] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص 237.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص 168.

* الحجا: العقل.

الله، وتمجيد لأرباب العقل الذين أزاح الله عنهم ظلام الجهل " حتى ظهرت لهم شموس المعرفة، ورأوا مخدراتها (...) المستورة منكشفة، ويحمد الله على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين"[1] عليه الصلاة والسلام.

-الحوضي التلمساني (ت 910هـ)

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الحوضي التلمساني، لم تذكر المصادر تاريخ ميلاده ولا ظروف تكوينه الثقافي باستثناء أنه ولد ونشأ بتلمسان، من كبار فقهاء المالكية، تعاطى الأدب فأصبح شاعرا لا يستهان به، من آثاره نظم في العقائد، توفي بتلمسان سنة910هـ[2]. من شعره هذه القصيدة التي رثا بها محمد بن يوسف السنوسي إمام الموحدين، والتي يقول فيها[3]:

ما للمنازل أظلمت أرجاؤهـــــا والأرض رجت حين خاب رجاؤها
وأتى عليها النقص من أطرافها وتـــراكمت وتعاظمت أرزاؤها
رزء عظيم خطبه ومصيـــــبه لم نـــدر بالقوم كيف عزاؤها
فقد السنوسي الإمام مـــحمد وهو ابن يوسف هد منها علاؤها
قد كان بحرا للمعارف زاخرا فانزاح عنهـــا حين بث غطاؤها
ودعا إلى التوحيد دعوة مخلص وإلى الشريعة فـــاستنار ضياؤها
هذا الذي ورث النبي فأصبحت علل الضلال به أستـــفيد دواؤها
هذا الذي تبع الـــنبي وصحبه فأنجاب عن سبل الهدى ظلماؤها

يرثي الشاعر في هذه القصيدة الطويلة التي أخذنا منها هذه الأبيات الإمام الموحدي محمد بن يوسف السنوسي، كتشخيص من الحوضي للحادثة

---

[1] نفسه. ج10. ص 168-169.

[2] عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر. ص 129.

[3] محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري. ص 233.

التي حلت بالموحدين في فقدهم لإمامهم جعل المنازل قد أظلمت وأن الأرض قد رجت لهول المصيبة، وبعد هذا التصوير يسترسل الحوضي في ذكر مناقب الإمام وفضائله فهو -في نظره -بحر للمعارف ومن دعاة التوحيد ومن أتباع نهج النبي وسلفه الصالح.

-عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ)

محمد بن عبد الكريم المغيلي من علماء الجزائر أواخر عهد الزيانيين، ولد سنة 831هـ في عائلة مشهورة بالعلم والتقوى والتصوف، بدأ المغيلي دراسته الأولى في مسقط رأسه مغيلة ثم انتقل إلى تلمسان حيث تعلم على يد علمائها العلوم اللغوية والدينية والعقلية والنقلية، وتوفي سنة 909هـ[1].

خلف لنا المغيلي العديد من المؤلفات شملت علوما عديدة منها: التفسير والحديث والفقه واللّغة وقد تجاوزت مصنفاته عشرين مؤلفا بين محقق وغير محقق[2]، وبالإضافة لهذا، خلف لنا قصائد شعرية، نورد منها -على سبيل التمثيل -هذه القصيدة في مدح النبي -صلى الله عليه وسلم - والتي يقول فيها[3]:

بشراك يا قلب هذا سيد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم
وهذه الروضة الغراء ظاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم
ومنبر المصطفى الهادي وحجرته وصحبه وبقيع دائر بهم
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي فالعبد ضيف وضيف الله لم يضم
يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي يا من لقاصده أمن من النقم
وقد سعيت إلى أبواب حجرتكم سعيا على الرأس لا على القدم

[1] دريس بن خويا: الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي. مجلة الذاكرة. العدد 07. ماي 2016. ص 12 وما بعدها.

[2] نفسه. ص 18-19.

[3] باجي عبد العزيز وعبد الغفار بن هيمة: قراءة في مخطوط بشراك يا قلب للإمام عبد الكريم المغيلي: المجلة الجزائرية للمخطوطات، المجلد 13، العدد 4، جوان 2018م، ص 263.

نظم المغيلي هذه القصيدة في رحلته للحج، وخلال زيارته لقبر المصطفى -صلى الله عليه وسلم - عبر من خلال هذه الأبيات عن سعادته في وقوفه بالروضة الشريفة، وقد أتبع فرحته هذه وهو بجوار المصطفى بث ندائه ورجائه في أن ينال شفعته، ويسعد فيمن أسعدهم الله في الآخرة.

ثانيا: النثر.

1 -الخطب والوصايا.

تعتبر الخطابة من أبرز فنون النثر في الأدب العربي وهي ذات ميادين متعددة، منها الدينية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ونحو ذلك، وقد عرف الجزائريون هذا النوع الأدبي عندما كان ساستهم يتحدثون لغة المواطنين، فإذا ارتجلوا بها القول أجادوا مع رباطة جأش وفصاحة لسان وقوة كلمة[1].

لكن بمجيء العثمانيين انحصرت الخطابة وبقيت حبيسة الجانب الديني فقط، وقد برز في هذه الفترة من تاريخ الجزائر عديد الخطباء أمثال: سيد قدور، وسعيد المقري، وأحمد المقري، وعبد الكريم الفكون، وأحمد بن عمار ... لكن خطب هؤلاء لم تصلنا، باستثناء الخطب التي ضمنها أحمد المقري في كتابه نفح الطيب وأخرى منسوبة لعبد الكريم الفكون[2].

ومن النماذج التي نستدل بها على خطب الجزائر العثمانية هذه الخطبة لسعيد المقري التي ألقاها في يوم الجمعة، قائلا: " الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفي من آل عمران رجالاً ونساء وفضّلهم

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 202.

[2] نفسه. ج2. ص 205.

تفضيلاً، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه وحقّه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً، ونجّى هوداً من كربه وحزنه، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه، وسبّح الرعد بحمده ويمنه، واتخذ اللّه إبراهيم خليلاً، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوّع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه، واتخذ منه كهفاً قد شيد بنيانه، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً، وفضّل طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلاً، وصدّق محمداً صلى اللّه عليه وسلّم الذي عجزت الشعراء عن صدق نفثه، وشهدت النمل بصدق بعثه، وبين قصص الأنبياء في مدة مكثه، ونسج العنكبوت عليه في الغار ستراً مسدولاً، وملئت قلوب الروم رعباً من هيبته، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته... "[1].

إنّ الذي يلحظ على هذه الخطبة -ذات المضمون الديني الوعظي - أنّها خطبة متكلفة مسجوعة في أغلبها، وهذه السمة الفنية تكاد تكون ظاهرة منتشرة لدى جميع خطباء الجزائر خلال العهد العثماني، وهو ما أشار إليه أبو القاسم سعد اللّه حين نبه على أن خطباء هذا العصر " كانوا يتفننون في هذه الخطب فلا يكتفون بالكلام المسجع أو المرسل، بل كانوا يضيفون إلى ذلك بعض القيود ومحاولة التأثير بها السامعين"[2].

2 -الرسائل.

تحتل الرسائل بنوعيها ديوانية وإخوانية في كل عصر اهتمام الأدباء والموظفين والأصدقاء، لكن ما يلحظ على عهد الجزائر العثمانية أنه شهد تراجعا كبيرا في كتابة الرسائل وبخاصة الديوانية " والواقع أن سيطرة اللغة

---

[1] المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج7. ص 335.

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 205.

التركية على الإدارة في الجزائر قد جعلت الرسائل العربية لا تظهر إلاّ في النادر، وهي وإن تظهر لا يراعى فيها الإجادة بقدر ما كان يراعى فيها التوصيل والفائدة"[1].

ومن النماذج التي نستدل بها، هذه الرسالة التي كتبها المحجوب الحضري سنة1064هـ، على لسان الباشا عثمان - أحد باشوات الجزائر - إلى سلطان المغرب محمد بن الشريف صاحب سجلماسة، وموضوعها العتاب الشديد لمحمد بن الشريف على إثارة أهل تلمسان وغيرهم ضد العثمانيين[2]، وقد افتتحت هذه الرسالة بقوله:" سلام عليكم ما رصع الجفان سموت البحور، ولمح الجواهر الحسان على أزهار رياض النحور، ورحمة اللّه تعالى وببركاته، ما أساغت محضر الجلال ذكاته، فقد كاتبنا كم من مغنى غنيمة الظاعن والمقيم والزائر، رباط الجريد، مدينة الجزائر، صان اللّه من البر والبحر عرضها، وأقر من زعازع العواصف أرضها، إلماعا لكم، معادن الرياسة، وفرسان الغابة والعيافة والفراسة، فضلا عن سماء صحا من الغيم والقتام جوه..."[3].

وما يلحظ على هذه الرسالة فنيا -بعيدا عن مضمونها -هو لغتها المسجوعة وطول جملها وكثرة الإضافات وتصيد الألفاظ الضعيفة أحيانا وركاكتها أحايين آخر.

وإذا كانت الرسائل الديوانية على هذا الحال من التكلف، فإن الرسائل الإخوانية ليست بأحسن حال منها، إذ بقي أسلوب التكلف سمة بارزة على رسائل الجزائر العثمانية بنوعيها، ومن أبرز كتاب الرسائل الإخوانية نذكر: عبد الكريم الفكون، أحمد المقري، أحمد بن عمارة

---

[1] نفسه. ج2. ص 190.

[2] السابق. ج2. ص 192.

[3] نفسه. ج2. ص 193.

ومحمد القالي وغيرهم، ومن النماذج التي نستدل بها على هذا اللون الفني رسالة محمد القالي إلى محمد بكداش باشا، والتي جاء فيها: "جل اللّه تعالى مالك الملك، ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك ... جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية، وهم أصل للرفعة والتشريف، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد، فسلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل اللّه .. أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار ..."[1].

وبعد هذه الافتتاحية المادحة للباشا مع الدعاء له بالنصر والتمكن في إعلاء دولته يخلص إلى غرضه وهو طلب الإعانة، حيث يقول: " وبعد، فإن اللّه تعالى من على المسلمين بسيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشمائل والمأثر، الإمام العادل، السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه اللّه في سماء الجلالة بدرا، ورفع له في درجات الأمراء قدرا، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته، وجناب الكفر مهتظما بعظيم صولته، مولانا وسيدنا محمد خوجا الدولاتلي ، أبقى اللّه تعالى أيامه، وأصحب النصر والتمكين ألويته وأعلامه، وهو نصره اللّه، أجل من استعين به فكان خير معين، وأعطى مفاتيح فتلقاها باليمين، وأفضل من امتثل قوله -صلى اللّه عليه وسلم - من فرج على أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا فرج اللّه عليه كربة من كرب الآخرة، إلى غير ذلك من

[1] السابق. ج2. ص 188- 189.

الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، حسبما أحاط به علم مولانا، نصره الله، من مروي ومنقول "[1].

ولعل الذي يلحظ على هذه الرسالة هو اعتمادها على المحسنات البديعية بكثرة، وبالرغم من كثرة المحسنات المرصوفة فإن عبارات القالي سهلة واضحة، ويظهر على أسلوبه استثماره للموروث الديني من خلال عبارات التضمين والأدعية التي وردت في نص الرسالة[2].

3 -المقامات.

يعد أبرز أديب جزائري أسهم في كتابة فن المقامات قبل الفترة العثمانية هو ابن محرز الوهراني كما سبق واشرنا في موضع سابق، لكن خلال الفترة العثمانية برز العديد من الأدباء الذين أبدعوا في كتابة فن المقامات وأولهم ابن ميمون في كتابه الذي وسمه بـ: «التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية»، وما يلحظ على هذا الكتاب أن صاحبه قد جمع فيه " ست عشرة مقامة، وجعل كل مقامة عبارة عن فصل من سيرة الباشا وأعماله، فمثلا المقامة الأولى في نبذة من أخلاقه والثانية في تعينه سنجق دار، والثالثة في توليه تقسيم خبر العسكر، والرابعة في توليه الحكم، الخ..."[3]، ولعل هذا التقسيم هو ما جعل النساخ يكتبون مؤلفه مقامات ابن ميمون بالرغم من أنه لم يطلق على كتابه مصطلح المقامات.

لقد حاول ابن ميمون في كتابه «التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية» أن يصيغه على شكل مقامات " وكل مقامة عبارة على وحدة قصصية تخص موضوعا معينا، ولكنه كان مجبرًا، وهو يتناول شخصيات تاريخية وأحداث واقعية، أن يكتب التاريخ لا الأدب وأن يسجل

---

[1] نفسه. ج2. ص 189-190.

[2] السابق. ج2. ص 190

[3] نفسه. ج2. ص 208.

الوقائع لا الخيالات"[1]، ومن هذه الوجهة عد عمله -في نظر النقاد -أقرب إلى التاريخ منه إلى المقامة لانعدام عنصري الحكاية والخيال.

أما كتاب أحمد البوني الموسوم بـ "إعلام الأحبار بغرائب الوقائع والأخبار" فقد عدّ أقرب الأعمال الأدبية لفن المقامة خلال العهد العثماني.

كتب البوني هذه المقامة سنة1106هـ، حيث تناول فيها "علاقة العلماء بالسلطة والاستنجاد بصديقه مصطفى العنابي، والشكوى من وشايات أهل العصر، وهي بدون شك تقرب في أسلوبها وطريقتها من أسلوب وطريقة المقامة المعروفة، وفيها الكثير من الخيال والأغراب والتهويل"[2].

وقد اقتتح أحمد البوني مقامته بقوله: " الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب، والنوائب فضائل لذوي الأقدار والخطوب، وسلط سبحانه وتعالى على الأشراف، أرباب الزور والفجور والإسراف .. وبعد، أيها العلماء الفضلاء، النبلاء الكملاء، فرغوا أذهانكم، وألقوا آذانكم، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب، فقد ارتفعت الأشرار، واتضعت أربات المعارف والأسرار، وانقلبت الأعيان، وفشا في الناس الزور والبهتان، وأهملت أحكام الشريعة، وتصدى لها كل ذي نفس للشر سريعة، بينما نحن في عيش ظله وريف، وفي أهنى لذة بقراءة العلم الشريف .. إذ سعى في تشتيت أحوالنا وقلوبنا، وهتك أستارنا وعيوبنا، من لا يخاف الله ولا يتقيه، فرمى كل صالح وفقيه بما هو لاقيه، واعتد في ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل، وهم والله أوباش أراذل .. وما كفاه بث ذلك في كل ميدان لأنه يسر الشيطان، حتى أوصله لمسامع السلطان، فلم نشعر إلا ومكاتب واردة علينا من جانب الأمير بعزل صديقنا الشهير، من خطة الفتوى، مع أنه ذو علم وتقوى، تحيرنا من ذلك أشد التحير،

---

[1] نفسه. ج2. ص 209

[2] السابق. ج2. ص 209

وتغيرنا بسببه أعظم التغير ثم نادى منادي السرور، وقال ابشروا برفع السوء عنكم ودفع الشرور .. فقلنا يا هذا أصدقنا الخ..."[1].

وفي التعليق على هذا النص يرى شوقي ضيف أن عمل أحمد البوني وإن ظهر عليه الطابع الأدبي والعبارات المتينة فمن " التجوز تسمية ذلك مقامة، إذ لا يقوم على الكدية والشحاذة الأدبية (...) على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري"[2].

هذا، ويعد عمل عبد الرزاق بن حمادوش (ت 1200هـ) في كتابة فن المقامات إنجازا متميزا في الأدب الجزائري القديم، حيث كتب ثلاث مقامات ضمنها في رحلته، أول هذه المقامات تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من مشاهد أثناء الطريق، والثانية سماها المقامة الهركلية تناول فيها لنقدا لبعض الظواهر الأخلاقية والاجتماعية في مكناس، أما الثالثة فقد سماها المقامة الحالية تناول فيها حالته مع الناس والدنيا والرحلة كما ضمنها حديثا رمزيا متعلقا بشخص يحبه قد تكون -على الارجح -زوجته[3].

ومن الوجهة الفنية المحضة تعد مقامات ابن حمادوش والقول لأبي القاسم سعد الله الأكمل والأفضل مقارنة بغيرها من مقامات أقرانه الجزائريين خلال فترة الجزائر العثمانية "إذ لا ينقصها عنصر الحكاية ولا الخيال ولا طرافة الموضوع، ولا الرمز، ثم إنها تجمع النثر إلى الشعر"[4].

4 -الرحلات:

---

[1] نفسه. ج2. ص 209-210.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والامارات. ج10. ص 238.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 210-211.

[4] نفسه. ج2. ص 211.

أسهم الجزائريون خلال الفترة العثمانية بكتابة الرحلات، وقد تنوعت رحلتهم بتنوع دوافعها، فالتي كانت لأداء فريضة الحج تعد رحلات حجازية والتي كانت لطلب العلم فهي رحلات علمية[1]. ومن هذه الرحلات ما وصلنا ومنها ما ضاع ولم يصلنا منه شيء.

-الرحلات العلمية: لعل أقدم النماذج التي وصلتنا من هذا النوع من الرحلات ما قام به عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بـ: الفُكَيرين (بضم الفاء وفتح الكاف) (ت1074هـ)، الذي نشأ في قسنطينة وتعلم فيها، ثم شد الرّحال لطلب العلم، حيث قصد تلمسان والمغرب الأقصى وبلاد السودان وعندما رجع بعد عشرين سنة من الغياب إلى بلاده[2]، يقول أبو القاسم سعد الله " أخبر بغرائب ما شاهد وعجائب ما رأى، وما أخذ من أولئك العلماء وأرباب الأسرار، وحصّل منهم فن القراءات وجانبا عظيما من فن الأدب"[3].

ويرى أبو القاسم سعد الله بأنّ رحلة الفُكَيرين من النّصوص التي لم تصلنا، قائلا: "فإذا كان قد كتبها فهي لم تصلنا، وإذا كان لم يكتبها فالغالب أنها قد أمليت على بعض تلاميذه الذين كانوا يعجبون بأخباره وغرائبه"[4].

ومن الرحلات العلمية، أيضا، رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء والمعروفة بالرحلة الأغواطية المكتوبة سنة (1242هـ)، التي "جمع بين الأخبار عن الصحراء وقراها وواحاتها وعاداتها وبين الحديث عن جزء من

---

[1] أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي.ج2. ص 382.

[2] السابق. ج2. ص 383.

[3] نفسه. ج2. ص 383.

[4] نفسه. ج2. ص 384.

الجزيرة العربية وجربة وقابس وشنقيط ونحوها"[1] كما ضمن فيها مسحا جغرافيا للمناخ والمياه والوديان والطرق[2].

وفي التعليق على هذه الرحلة يشك أبو القاسم سعد الله في حقيقة زيارة الأغواطي لجميع الأماكن التي ذكرها في رحلته، قائلا: " ثم إنه ليس من الواضح أنه زار الأماكن التي وصفها، ولعله سمع عنها فقط باعتباره من سكان الأغواط إحدى مدن الصحراء التي تحدث عنها"[3].

ومن الرحلات العلمية التي وصلتنا في العهد العثماني رحلة عبد الرزاق بن حمادوش* (ت 1200) والموسومة بـ «لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال»، وهي رحلة قام بها المؤلف من الجزائر إلى المغرب الأقصى[4]، وستكون لنا معها وقفة تفصيلية إن شاء الله في محاضرة مستقلة.

-**الرحلات الحجازية**: لعل أول الرحلات الحجازية التي ألفت خلال العهد العثماني رحلة أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني (ت 1139هـ) المسماة «الروضة الشهية في الرحلة الحجازية» لكن هذه الرحلة ضاعت ولم تصلنا[5].

وعلى الضد من رحلة البوني الضائعة، فإن رحلة الحسين بن محمد السعيد الورتلاني (1125 -1193ه) الموسومة بـ: «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» قد وصلتنا كاملة، وقد وصف الورتلاني في هذه الرحلة مشاقها "من الجزائر إلى البقاع المقدسة، وقد تضمن هذا وصفا للأماكن

---

[1] نفسه. ج2. ص 386.

[2] سياب خيرة: رحله الصحراء لابن الدين الأغواطي المعروفة بالرحلة الأغواطية. دراسة طبيعية، اقتصادية، اجتماعية، عمرانية، المجلة الجزائرية للمخطوطات. العدد 13. جوان 2015. ص 169.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 386.

* لابن حمادوش رحلة حجازية لكنها مفقودة. تمثل جزءا الأول لرحلته الموسومة بلسان المقال النبأ عن النسب والحسب والحال.

[4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 384.

[5] نفسه. ص 390.

ولأحوال الناس من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية على تنوعها"[1].

ومن الرحلات الحجازية، أيضا، ما كتبه أحمد بن عمار (المتوفى بعد 1250هـ) الذي ألف رحلة سماها: «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب»، وقد قسم ابن عمار هذه الرحلة إلى ثلاثة أقسام: مقدمة ورحلة وخاتمة، ففي المقدمة تحدث ابن عمار عن أشواقه إلى الحرمين وإلى النبي صلى الله عليه وسلم[2]، حيث يقول: "فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم وتقدم الترحال"[3]، وأما القسم الثاني: وهو الرحلة؛ فكان في ذكر مسار السفر من الجزائر وصولا إلى الحجاز، ومن ثمة العودة حيث يقول: "أما المقصود ففي ما يجده السفر إلى الإياب وحط الرحال"[4]، وأما الخاتمة "ففي ما نشأ عن ذلك بعد السكون وانضم إليه وجره الصدر عن العجز ورده عليه"[5].

لكن ما يلحظ على هذه الرحلة أن قسمايها الثاني والثالث مفقودان وما بقي منها إلاّ قسمها الأول الذي ضمّن فيه ابن عمار -إلى جانب شوقه للحرمين وإلى النبي صلى الله عليه وسلم -حديثا "عن شعر الموشحات والمولدية والمدائح النبوية وعادات أهل الجزائر أثناء الاحتفال بالمولد النبوي"[6].

---

[1] وردة سلطاني: أشكال السرد في الأدب الجزائري القديم. أطروحة دكتوراه علوم. جامعة باتنة. 2013-2014. ص 251.

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 392.

[3] أحمد بن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب. مطبعة فونتانا. الجزائر. 1902. ص 4.

[4] السابق. ص 4.

[5] نفسه. ص 4.

[6] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي. ج2. ص 392.